التجربـــة

يسرى الأيوبي

أواه ياأبت.. ان هذا الحلم ليتردد علي مرة بعد أخرى فـأنتفض مـذعورة لاأدري ما سطر الله لي في عالم الغيب.. وتفارقني السكينة لتتركني في خضم من قلق وشكوك تسمم أيامي.. أسكب على نفسي الطمأنينة يا أبي بكلمة منـك فأنـت أعلم من في القرية، وأقدرهم على تفسير الرموز الإلهية في أحلامنا، وكشف مـا يخبئه لنا المستقبل.. أريد أن أطهر نفسي لأكون يوما جديرة بمقام القديسات.. أواه يا أبت دلني على الطريق التي أكون فيها أقرب ما أكون من الله!..

ونظرت الى وجه الأب المكفهر وقد غاص قلبها جزعا فقال:

- أكثري من الصلاة يابنية لينقذك الله من التجربة.. ان هذه الأحـلام تـدل على عنف في طبيعة شهواتك.. لقد حملك الله صليبا ثقيلا.. فأكثري مـن التهجـد والتضرع لعله يمحو عنك المقدر..

ووهن من الفتاة القلب، وراحت ترتجف كطير بليل في مهب الريح، وشحب وجهها الجميل وامتلأت عيناها العسليتان الواسعتان بدموع يأس رهيب..

- أنا! أنا التي أريد أن أبلغ في الحياة ما بلغته القديسة تريزا وأكرس حياتي لله وأفنى فيه كتب علي هذا المصير؟

- كلنا أبناء الخطيئة يابنية.. إنها تلاحقنا منذ مولدنا بـل منـذ كـان هـذا الوجود.. وليس لنا سوى العمل الصالح لعل الله يرأف بنا ويحشرنا فـي زمـرة عباده الأتقياء..

فتمتمت بصوت دميع:

- ألا يكفي أنني أحيا في ملجأ لا أعرف لي أما أو أبا؟.. ألا يكفـي أننـي أحتمل ما جناه علي والداي حتى يعيد الله تجربته بي ولم أقترف ذنبا؟ أنا البائـسة التي أردت أن أكفر عمن زرعوني في تربة الشقاء في أن أبذر حبات قلبي للخير وأسقيها بدمي..لا..لا..هذا كثير كيف يمكنك أن تسمح به أيها الإله الحكيم القدير!

وأجهشت بالبكاء، فهدأ الأب روعها بقوله:

- لا تيأسي من رحمة الله يابنيتي.. ان له الحكم الأخير على تصرفاتنا، وكل ما علينا أن نسعى ونتفانى في رضاه..

- ألا يمكنني أن أتجنب ما حاكته لي الأقدار من فخاخ يا أبت؟ إن لي إرادة قوية، وسأسير وعيناي مفتحتان في طريق الأشواك..

- صلي يابنيتي وأكثري من الصلاة.. إنه وحده الذي ينجيك من التجربة وليست إرادتك.. فالخطيئة مزلقها سهل وليس بينها وبين شاطئ الأمان سوى قيد شعرة..

* * *

ما أتعس ما عانت تلك الفتاة وقد عصفت بها أنواء الهموم، وراحت تحاسب نفسها حسابا عسيرا عن كل خالجة تعبر خبايا نفسها بأعين فاحصة.. وتكافح أهواءها بجهد مستيئس.. عرفت أين يكمن ضعفها.. ان الشيطان يستهويها عن طريق الرجل.. الرجل الذي أحبته بكل جوارحها، ودافعته بكل قواها في أحلامها وخيالها قبل أن تلقاه، وزرعت الراهبات في نفسها النفور والرهبة منه فإذا بها تصمم أن تقطع كل صلة تربطها به وتهرب من دنياه مختبئة في برجها العاجي، فلا سبيل الى مقاومة سلطانه الاّ بالإبتعاد عنه، والاّ فان القدر سينفذ حتما مآربه الرهيبة بها..

وتسترت شهواتها بتقى عجيب، استلّ لها الإعجاب من صدور الراهبات والرئيسة على الخصوص. وكم كان سرورهن بها إذ انضمت الى زمرتهن واستلهمت سبل السماء وأعرست للمسيح واستبدلت باسمها لقب "الأخت تريزا" تيمنا بالقديسة التي أزمعت على أن تتأثر خطاها.

ومرت عليها بضع سنوات عملت فيها معلمة في الملجأ ذاته.. وكانت عاطفتها قد نضجت واشتد أوارها، وأنهكها الكبت وأمعنت في تقاها حتى غدت تصرفاتها هوسا دينيا بهر به من حولها، فنجحت في التمويه ولكنها فشلت في خداع نفسها.

وجاء يوم استدعتها فيه الرئيسة وأنبأتها خبر نقلها الى مستـشفى "الجبـل" الذي تديره راهبات. فهي أفضل من يصلح في خدمة المرضـى والتخفيـف مـن بأسائهم.. فمرت على وجه الراهبة الفتية سحابة أسية وأحست بأن محنتها تقترب، وأن أحداثا توشك بها لو هجرت ملجأها الآمن الى مغريات لايعلـم الاّ الله مـدى مناعتها إزاءها.

وأحست الرئيسة بامتعاضها فابتسمت بحنان وطيبة وهي تردف:

- توفيت الأخت "كلير"متأثرة بمرض أصابها في المستشفى وذهبت شـهيدة واجبها عروسة مكللة الى السماء.. ورأت الرئيسة هناك أنك خير من تخلفها. فلقد أعجبت بك كثيرا إذ زارتنا في "رياضتها" الأخيرة منذ شهور وتأثرت بما أثنينـا من صفاتك، فوثقت بك في هذه المهمة الدقيقة.

ودمعت عين الأخت تريز فاستغربت الرئيسة وسألتها:

- أتخافين المرض يا بنية؟

- أبدا.. أبدا أيتها الأم المبجلة.. ان الواجب يستهويني بقدر مـا فيـه مـن تضحية.. ولكن..

- ولكن ماذا؟

- إنه فراقكن وفراق هذا الملجأ الآمن ما يعز علي ويدمع عيني..

فتهللت أسارير الرئيسة وأجابت:

- بورك فيك يابنية.. فليكن صبرك على الفراق مأثرة لك جديدة لمجد الله..

وفي تلك الليلة راحت الأخت تريز تصلي بحرارة وانفعال ليحميها الله مـن التجربة وليهبها من لدنه القوة على مواجهة الحياة.

* * *

انه لعالم جديد يموج بالحركة، هذا الذي زجت به الراهبة الفاتنة شغلها عن نفسها ومخاوفها فما لديها لحظة من فراغ لهواجسها، لاءم طبيعتها القلقة الحركيـة واستنفذ طاقتها الحيوية فاذا بها في هذا الجو أكثر أمنا وطمأنينة.. وما عاد يرهبها الرجل، وما لمست من الأحاسيس أكثر مما تحسه نحو أخ لها بـائس.. أحاسـيس

بريئة رحيمة، تلك التي كانت تعتلج في حنايا نفسها.. وغمرتها غبطة سماوية فإذا بها تركع أمام تمثال العذراء وتشبك يديها وتذهب في صلاة ذاهلة ملؤها الشكران وعرفان الجميل.. لن تصيبها محنة.. إنها خلقت لتحمل لواء الله سـلاما لقلـوب المعذبين.. إنها تقترب حثيثة الخطى من مشاعر القديسات..

ولكن.. لم يلبث أن أم المستشفى ضابط فرنسي جريح وسيم الطلعة أشـقر الشعر سماوي العينين.. ولم يكد يتفرس في ملامح الراهبة الفاتنة وهـي تـضمد ساقه حتى أصدر أنة حرى "ان هذا الفم الشهي خلق للتقبيل، وهذا القـد الرشـيق لتهصره ذراعا رجل".. وأحست الراهبة بصدمة عنيفة لذيذة فارتعـشت أناملهـا وأصابها مايشبه الدوار "انه جميل.. أجمل مما يتصور الخيـال جمـال رجـل" وراحت تعدو هاربة من الجحيم والغواية المرتقبة.

- بالله أيتها الأم المبجلة أعيديني الى الملجأ!.. أحس بقواي منهكة وبمرض يكاد ينشب مخالبه بي.. لم أعتد كل هذا الإجهاد من قبل.

- لاغنى لنا عنك يا بنية.. وسأخفف عنك عناء الإجهاد وأعفيك مـن قـسم النساء لتبذلي عنايتك في قسم الرجال!

وتململت الأخت تريز كأسد حبيس، وانسابت من الغرفة كـالطيف قبـل أن تخونها دموعها.

وراحت تصلي في غرفتها بتضرع يقطع الأكباد.

- رباه أمتني! أزهق روحي الآن ان كنت تريد حقا أن تهوي بي في مهاوي الإثم، أو اخنق في صدري هذه العواطف الوليدة قبل أن يستفحل أمرهـا.. ربـاه، انني أسلمتك رعايتي وقيادي فأرشدني الى ما فيه الخير، ولتسعني رحمتك التـي وسعت كل شيء..

وبلغ سمعها صفير الريح في الخارج، وأحست في صدرها ظلاما أحلك من الظلام المسدل ستاره على الكون، لم يبدده شعاع الهي ببارقة عزاء.

وراحت عواصف الحب تهاجمها يوما بعد يوم فحشدت لها قواها عبثا.. انه في أحلامها وحين تصحو وحين تدلف الى فراشها يتأوه وتناديها عيناه.. فتنـتفض

على ألم لذيع.. ان كل جارحة من جوارحها تريد لو تحرق في ضـرام الحـب.. وأفلت من يدها زمام كل العواطف التي كبتتها الأعوام الطويلة كبركان لم يجد لـه منفذا يوما من الأيام.. وودت لو تذهب الى الرئيسة وتطلعها على حالها وترجوها أن تبعدها عن الجو الذي تشم فيه روح الهوى والفتنة فلعلها تقوى على النسيان.. أما وواجبها يحتم عليها أن تنفرد به في الليل والنهار فإنها لا تأمن على نفسها، ولا تجد الشجاعة الكافية للمقاومة.. ولكنها لاتلبث أن تخجل مـن الإعتـراف لتلـك الرئيسة الطيبة التي تثق بها ثقة عمياء..

وحدث ما كانت تخشاه.. لقد تماثل الضابط للشفاء واقترب اليوم الذي يترك به المستشفى.. فاشتد اضطرابها واستولت عليها كآبة قاتلة.. انه غدا لهـا الهـواء الذي تتنفسه.. الدنيا وزينتها التي كفرت بها.. وإنها مع هذا لتود لـو يقفـر منـه المستشفى فتستعيد روحها التي سلبت، وتكرسها مرة أخرى لطهارة الأخيلة وأماني السماء.

- ألا تعلمين أني مسافر؟ وقنعت وجهها بنقاب اللامبالاة:

- رافقتك السلامة! انني سعيدة أنك عوفيت بمثل هذه السرعة.

فهز رأسه ونظر اليها نظرته الطويلة الفاحصة :

- أحقا سعيدة؟ ليتني مثلك وأنا قانع.. عوفيت! حقا.. جئـت بقلـب سـليم وسأخرج به محطما.. انني عوفيت فشكرا للأنامل الساحرة التـي أسـبغت علـي العافية.. ألا تسمحين لي أن أقبلها؟

وشد على يدها فأحست كأنما يكاد يغمى عليها لفـرط الإنفعـال، وهتفـت بصوت متهدج وهي تحاول الإنفلات:

- "اياك، اياك أن تلمسني"

ولكنه أخذ عليها كل سبيل بحرارة أنفاسه واختلاج شفتيه وعنف نبرته.

- أليس حراما أن تدفني هذا الوجه الفاتن في ظلمة القبـر؟ لـن تكـافئي بشيء.. فليس هناك سماء ولا اله ولا جنة ولا جحيم.. ان نصيبك هنا في دنياك.. لقد خدعوك ليدفنوا زهرة شبابك بتعاليمهم السمجة البالية.. لم تخلقي لهـذا.. لـم

تخلقي لترتدي ثوب راهبة.. وان خدعت الجميـع فلـن تخـدعيني.. إننـي أرى اختلاجة شفتيك، وأرى البركان الثائر من العواطف الحبيسة في صدرك.. حـرام أن تخنقيها.. فليس في الحياة أجمل من الحب ولا أقـدس مـن الحـب.. تعـالي أسمعيني خفقات قلبك.. انني أحق من الدير بسحر هذا الجمال.. انـك تحبيننـي.. تحبينني بكل جوارحك فارمي بهذا القناع.. لايمكنك أن تكذبي فليس هنـاك مـن خطيئة آثم من حياة الغش والخداع التي تحيينها..

وفارقتها قواها وشحب وجهها فضمها الى صدره بعنف ينهب من شـفتيها قبلات حارة..

ولم يلبث أن دفع الباب ورن صوت الأخ باسكال وهو يقول :

- جئتك بالكتب التي استعرتها مـن... يـاالهي! أي شـيء أرى! مـشهدا غراميا؟ بورك فيك أيتها الأخت تريز!..

فنال القهر منها أبلغ منال، وعجزت عن الكلام فارتمت على السرير تنشج، ولم تقف لترى الابتسامة النكراء التي ارتسمت على الشدقين الممطوطين، والنظرة الخبيثة الكريهة التي بدت في العينين الضيقتين.. كان الراهب يستشعر البغـضاء نحو الراهبة الفاتنة إذ يلمح في نظرتها الهزء بل الاحتقار له، حتى أنها لم تخـف عنه رأيها يوما "لم تخلق أيها الأخ باسكال لتكون راهبا". فان كانـت هـي تكـتم عواطفها بجهد جبار، الاّ أنه لم يكن يتحرز من مغازلاته العلنية السمجة لمريضات المستشفى. ولم يكن يتصف بشيء من نبالة الطبع وصدق الضمير. ولـم يدفعـه لسلوك هذا المسلك في الحياة سوى فشله في أن يقيم أوده عن غير هذا السبيل.

واستطرد الأخ باسكال بقوله: "يحسن أن تمتع الرئيسة ناظريها بهذا المشهد الطريف"..

وسمعت الأخت تريز الضابط يهتف به أن لايفعل وضحكة خبيثة.. وتهديـد في أن يدق عنقه لو فعل.. وضحكة أخرى.. واصطفاق الباب.

أواه، لكأنها تحيا في مشاهد حلم سريع رهيب.. ماذا حدث؟ وأية عواطـف هائجة تلك التي دفعتها لتهتف:

- دعنا نذهب من هنا.. اذهب بي الى أي مكان آخر.. لاأقوى على مواجهة الرئيسة ملبسة بهذا العار..

ولا تدري كيف استقلاّ السيارة التي تنتظر عند الباب، ولا كيـف انطـوى الطريق الى العاصمة المتلألئة بالأنوار.. ولا كيف انعطفت السيارة الـى القريـة التي نشأت فيها وترعرعت. والى بيت القس الطيب الذي تنبأ لها بهذا المـصير. كان الضابط يود جاهدا أن ينفذ رغائبها.. استطاعت أن توجز له ما تبغيه بالرغم من إحساسها بأنها مشلولة الإرادة والتفكير، وأن يدا خفية تسيرها كآلة مـسخّرة.. فان كتب لها أن تضلّ، هاجرة أفراح السماء لتهوي الـى شـقاء الأرض، فلـيكن الأمر على يد الكنيسة، وعلى يد قسيس يفهمها ويعذرها. ولكنها أدركت أن لاسبيل لها لتتزوج كما يتزوج الناس. ورن في أذنها الجواب الرهيب على لـسان القـس الذي أنابته الأقدار ليرسم مصيرها ويكيل لها الضربة القاضية.

- ان من نذرت نفسها لتكون عروس المسيح لايمكن لها أن تصبح عروس البشر!..

- أتريدني أن أحيا معه على غير شريعة الله؟

- أوتريدينني أن أحتمل خطيئة وزرك؟.. فليس هنـاك مـن قـس يجمـع بينكما.. نفذت نبوءة الأقدار، وهويت من حالق.. ان جريمتك مضاعفة، ومضاعف سيكون عذابك الاّ أن تتوبي وترجعي عن غيك..

وعصفت في صدرها ثورة مجنونة فاذا بها لاتعي واذا بها تهتف:

- أي اله هذا الذي تتحدث عنه!.. أي اله هذا الذي أصم أذنيه عن توسلاتي وأوردني موارد الهلكة ليعاقبني العقاب الأبدي!.. ما عدت أومن به.. انه لظالم هذا الإله ان وجد.. ولقد كفرت بوجوده حين كفرت بعدله!

وهدر القس بصوت وحشي:

- الخطيئة والكفر! أغربي عن وجهي أيتها الهالكة.. لقد حقّ عليك العذاب!

فجذبها الشاب من ذراعها وهو يقول:

- هلمي! سنجد من نشتريه ببعض المال ان كنـت مـصرة علـى هـذا.. ولكنهما لسوء الحظ لم يقعا على مثل هذا القس، أو أنهما لم يحسنا البحـث عنـه وترضيته بلباقة.

وأسلمت الفتاة أمرها حزينة القلب للشاب فقادها في دروب الحب الى جنـة السعادة والهناء.. وحطم ما بينها وبين الله فأنقذها من الألم، وملك روحها فعبدته، واستبدلت بصلاتها قبلاته ومحرابها صدره.. لقد تجسد لها الإله فيه.. وهتفت يوما لنفسها وقد فاض قلبها بغبطة علوية: "لايمكن أن يلعن الله مثل هذه السعادة!"

ولكن الحبيب غاب ذات يوم وانقطعت أخباره.. وعلمت فيما بعد أن أوامـر مستعجلة صدرت لفرقته بالإنسحاب والعودة الى الأوطان فخلفها وطفلها وحيـدين في هذا العالم.. وانتابها اليأس أول الأمر ووجدت نفسها على شفا جرف ينهـار.. ستغوص في الهاوية، السحيقة القرار، فتدفن شقاءها بشقاء أنكى وأمـر.. ولكـن صوت السمو في نفسها لم يخفت اذ ناداها في فجيعتها "بل حلقي نحو السماء!"

ودت لو تفعل شيئا خارقا.. شيئا يمحو عنها مأثمها الذي نصبته لها الأقدار وما ارتاحت حتى أطبقت بالفخ على فريستها البائسة.. فتحلق الى أبعد مما حلقـت في الماضي.. لقد جعلتها التجربة أقرب ما تكون لله والإحساس بجمـال الكـون.. إنها خفيفة الجناح لايضنيها الكبت والحرمان.. ذاقت حلاوة الحياة ومرها.. ووهبها الحبيب طفلا وسيما ذكيا ولد في سماء الحب المتلألئة بنجوم السعادة الألقة.. فهل من الممكن أن يكون الله غاضبا عليها وهو الذي قدر ودبر وسلب ثم وهب.. لا.. ان سكينة نفسها تطمئنها.. أتتوب؟ أتعود الى أحضان الدير؟ ان مثل القديسات لـم يعد يجتذبها، وهي تحس بخوائها ومجانبتها للطبيعة البشرية.. وستصبح الذكريات العزيزة الهانئة مأثمة في نظرها..لا، لا.. وهذا الطفل الحبيـب سـيحرم عليهـا أمومته.. ونظرت الى الوجه الملائكي في السرير.. وجدت معراجها نحو السماء.. إنه في العمل الصامت والجهد المتواصل لتجعل من طفلها الحبيب انسانا ناجحا.. ولتنتظر فلعل الحبيب الغائب يعود!

* * *